

مكانة المرأة الطوارقية

د. بشي إبراهيم العيد

أستاذ مساعد

قسم التاريخ

جامعة الجزائر 2

لقد تبين من خلال كل المشاهد الموجودة في منطقة التاسيلي - ناجر التي ترجع إلى العصور القديمة أن صورة المرأة تظهر في أغلب المشاهد السحرية والدينية، منذ مرحلة الجاموس المتميزة، بنقوشها الطبيعية. التي تتضمن كثرة المشاهد الجنسية (إبراهيم العيد بشي، 2009، تاسيلي ناجر، الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، الجزء الرابع، منشورات الحبر، الجزائر، ص. 109). كما هو ملاحظ في منطقة وادي (جرات) التي تبعد عن مدينة إيليزي بحوالي 30 كم إلى الجنوب الشرقي، التي يشير إليها من قبل بعض الباحثين على أنها، تعبير يؤدي إلى الحفاظ على بقاء السلالات البشرية والحيوانية (CAMPS, G., 1974, Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du nord et du sahara, Vol. I,) (Paris, p. 373).

معظم المشاهد هي عبارة عن تعبير يرمز إلى الخصوبة والأمومة بينما في الوقت الراهن كما يشير محمد السويدي فيما يخص المرأة والأسرة قائلا: " الزواج بالنسبة للطوارقي ليس مجرد متعة بقدر ما هو أداء لدور طبيعي في بناء المجتمع التاسيلي-ناجر. بشكل عام، فهو مجتمع يقوم على نظام الأسرة، إذ لا مكان لمن لا أسرة له، سواء كان رجلا أو امرأة ". فالأسرة تعتبر الخلية الصغرى في المجتمع الذي يضم عدة عشائر وقبائل أو حتى عائلات تترايط بروابط الدم مع مجموعات مواليمهم. ويشير كل من سيّابون وميلا إلى أن الجراماتس كانوا قديما بعدد كبير من النساء وأنه كان لكل فرد منهم عدد كبير من الأولاد والبنات ويظهر أن كثرة سكان التاسيلي -ناجر. في الماضي كان مرجعة كثرة النساء لدى الرجال، وتدل كثرة قبور النساء وتفوقها من حيث العدد على قبور الرجال بالجبانة الملكية في جرمه. (محمد سليمان أيوب، 1969، جرمه، دار المصراطي للطباعة والنشر، طرابلس، ص. 155). والمجتمع الطوارقي كما تشير إليه أغلب المصادر والمراجع يختلف عن جميع المجتمعات الأخرى من حيث تقديره للمرأة ومكانتها فيه. فيمتعها بالمساواة التامة وقد ذكر ذلك أغلب المهتمين والمؤرخين منهم (أبن بطوطة) فقد أشار إليها قائلا : (نساء الطوارق أكثر تحررا من غيرهن لا يمنعن من الاختلاط المنظم مع الرجال ودون أن تظهر أية مخالفات من رجال الطوارق وهن يقتتين أغلب الثروات) (الهادي المبروك الدالي، 2006، قبائل الطوارق، دراسة وثائقية، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، ص. 299). ويشير جيمس ريتشارد سون

قائلا: (إن المرأة الطوارقية ليست كذلك التي تقطن منطقة الساحل الإفريقي أو المرأة المسلمة بوجه عام فالمرأة الطوارقية هنا تتمتع بقدر كبير من الحرية، ولا تلبس الحجاب، وتشارك في الرأي في كل ما يتعلق بأمور الحياة وأن الرجال يبدون اهتماما كبيرا بهن وهو ما أعطاهن وضعاً مختلفاً تماماً عن بقية نساء المسلمين. (نجمي رجب ضياف، 1999، مدينة غات وتجارة القوافل الصحراوية، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا، ص.249).

وكما يؤكد الباحث **محمد سعيد القشاط** في إشارته في هذا الصدد قائلاً: "تعتبر الأسرة الخلية الصغرى في مجتمع التوارق وفي المجتمعات القبلية بصفة عامة وتسمى الأسرة عند الطوارق (إيهن) أي الخيمة وكذلك العرب أيضا يسمون الأسرة (البيت) وهو الخيمة حيث تتكون الأسرة من الأب والأم والأولاد وعدد من الخدم حسب مكانة رب الأسرة وتأتي بعد الأسرة العائلة أو العشيرة وتسمى عند التوارق (كيل إيهن) وتتكون من عدد من الأسر تربطهم قرابة الدم وعادة ما ينحدرون من جد واحد للعائلة ويكون ذلك الجد غير بعيد، ويعيش مع هذه العائلة أو العشيرة مجموعات من العبيد والموالي التابعين لها..." (محمد سعيد القشاط، 1989، التوارق، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، كاليري-إيطاليا، ص.63).

تعتبر المرأة عند قبائل الطوارق بمنطقة التاسيلي-ناجر إن البيت بيتها، تملك كل ما فيه من أثاث، وهي التي تقوم بحلب اللبن وتحضير الحطب وإذا يريد الزوج شيئاً فعليه أن يطلبه منها أولاً. وعلى العموم فالمرأة الطوارقية تتمتع باستقلال ذاتي، وهي أبعد من أن تكون خاضعة لزوجها خضوعاً مطلقاً. (محمد السويدي، 1985، محاضرات في الثقافة والمجتمع، طبعة الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، ص.77). تتمتع المرأة في المجتمع الطوارقي المتمركز بالصحراء الكبرى بمكانة مرموقة رائعة تحسد عليها - ولها وضع خاص في تركيبة المجتمع الطوارقي، حيث تلعب النساء أدوراً متميزة داخل هذا المجتمع مخالفة عن مناطق الجزائر الأخرى، وإذا كان الإسلام الذي يسمح للرجل بالزواج بأربعة نساء شرعاً، نجد أن الطوارق لا يتزوجون إلا بامرأة واحدة، يستمر **محمد السويدي** واصفاً تلك الظاهرة الخاصة بالمرأة الطوارقية قائلاً: "كما يلاحظ أن الرجل غالباً ما يعامل حماته أحسن معاملة، وفي الأدب، فهو لا ينظر إليها عندما يحدثها، إذ تقضي العادة عندهم أن يقترب كل منهما من الآخر، ولا يرفع عينه فيه. ومن الحقائق التي لا تقبل الشك على الإطلاق هو أن الشعوب الغربية تزعم بشكل عام الاهتمام بشئون المرأة من رعاية وتحرر. نجد أن المجتمع الطوارقي في التاسيلي-ناجر. عامة للأخ الأكبر في الأسرة مكانة عالية ويحظى بمنزلة محترمة فيها، وكلمته مسموعة، غير أن الأخت الأكبر منه تحظى هي الأخرى بمكانة أكثر احتراماً منه ولا يستطيع أن يواجه شقيقته التي تكبره حتى بالحديث مباشرة، وإنما يتحدث إليها عن طريق شخص آخر "هذه الدرجة من الاحترام والتبجيل قلما نجدها في مجتمع غير المجتمع الطوارقي ويلاحظ ذلك حتى وإن وجدا وحدهما في البيت وأراد الأخ من أخته شيئاً فإنه يقول (أريد أن يقول فلان لأختي إنني أريد منها كذا) هناك احتراماً وتقديراً للأخ أو الأخت الكبرى حتى لا

تشعر بأنها مجرد كائن يتلقى الأوامر من قبل الآخر وليس هذا فقط بل أن الشقيقة الكبرى هي التي تتولى تأديب شقيقها مهما بلغ سنه، وذلك عندما يبدو عليه أنه تجاوز الأصول والأعراف السائدة، حتى أن أعظم قسم يقسم به الرجل هو أن يقسم بشقيقته الكبرى، إن احترام المرأة في المجتمع الإفريقي المعاصر ليس بدعة، فلقد عرف أجداد الطوارق وبعض الإفريقيين يرجعون نظام نسب الأبناء إلى الأم، مع ملاحظة أن المناطق التي تتبع النظام الأبوي في النسب في الوقت الحالي تمثل الجزء الأكبر من إفريقيا وهي المناطق التي تأثرت بمبادئ الإسلام خصوصاً وأن القرآن قد نص في موضوع النسب (أدعوهم لآبائهم). يضيف **محمد السويدي** قائلاً: "ومن دراستنا للتاريخ الاجتماعي للمجتمعات الكبرى مهد الحضارات الإنسانية الأولى نجد أنها قد ميزت بين واجب المرأة وواجب الرجل، وبالتالي فصلت بين ما لكل منهما من حقوق وواجبات، بحيث لم يكن دور المرأة متماثلاً حتى على مستوى الطبقات ومدى تباين درجات الفقر والغنى" (السويدي، 1985، ص. 78).

1- مكانة ومساهمة المرأة الطوارقية في ثورة التحرير الجزائرية:

وعليه تجدر الإشارة هنا إلى الدور التي كانت تقوم به المرأة الطوارقية أثناء ثورة أول نوفمبر 1954م في منطقة التاسيلي-ناجر. واكتفى ببعض النماذج من شهيرات النساء اللواتي ساهمن في مساندة الثورة وبرزن في الأعمال الجهادية منهن على سبيل المثال لا الحصر فناته ناصر المولودة سنة 1935م في إيليزي. والتي شاركت بصفقتها عضو دائم من سنة 1960م - 1962م فقد تعرضت إلى عدة مضايقات من قبل الضابط الفرنسي (لاشو)، نظراً لدورها في إمداد المجاهدين والحفاظ على مصالحهم في منطقة الحدود الجزائرية الليبية. وتنا خير كولو المولودة 1924م في إيليزي التي كانت تعمل مسبلة من يناير 1961م إلى غاية 1962م كانت لها دورا هاما إيواء المجاهدين. يضاف إلى ذلك أمنيته السنوسي المولودة خلال 1938م في إيليزي. كانت لها دورا هاما في جمع التبرعات من النساء الليبيات من حلي وأوال وملابس في الفترة ما بين 1956م إلى غاية 1962م.

كما لا ننسى الدور التي قامت بيه المرحومة داهة خميس المولودة. خلال 1870م في إيليزي في مساندة الثورة التحريرية فقد شجعت أبناءها في الانخراط في العمل الثوري لصبحوا فيما بعد جنودا ومسبلين. وهناك الكثيرات الطارقيات اللواتي قدمن خدمات هامة للمجاهدين ولصلح العمل المسلح من تمرير السلاح إلى جمع الأموال وحفظ وصون تفاصيل العمل السري والتوعية بين أوساط النساء وهذا، نظراً لمكانة المرأة في المجتمع الطوارقي الذي كان من أهم رائداته سماوي وانكري المولودة خلال سنة 1934م في إيليزي. وزينب وانكري المولودة خلال 1938م في إيليزي. فقد وقفن أمام التغلغل الفرنسي في المنطقة. وساعدن الثوار في الإعلام والتصدي للحملة الإعلامية الاستعمارية والتجسس وعلى إثر ذلك كسبت قيادة الصحراء الرهان لصالح الثورة الجزائرية. بفضل هؤلاء المجاهدات اللاتي كن منهن وانكري باشو المولودة خلال 1945م في إيليزي. ورمضاني يمينة المولودة سنة 1922م في إيليزي.

يضاف إلى ذلك خماية فاطمة المولودة خلال سنة 1940م في إيليزي. و الزهرة معطا الله المولودة خلال 1935 في متليلي. وكانت هناك من الطوارقيات اللمعات اللواتي خضن الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي دفاعا على وطنها ودينها أمثال خنانة بوغراري المولودة خلال 1934م في إيليزي. والمجاهدة أميناته سنوسي المولودة خلال 1938م في إيليزي. وزيناك فاطمة المولودة خلال 1936 في إيليزي. ومسعودة بن سباق المولودة خلال 1938م في إيليزي. (مديرية المجاهدين، ولاية إيليزي).

كما لعبت دورا هاما في مساندة وجاهدت بالغالي والنفيس في سبيل استقلال الجزائر. وكانت لها مكانة أم الجاهدين. والتي ولدت خلال 1923م فاطمة حنيش في غدامس زوجة المجاهد المرحوم قدور ببح بن عبد القادر روابح. هذه المرأة قد عملت كل الأعمال من أجل نصرته الثورة الجزائرية فكانت مسبلة وحافضة أسرار تحركات الثوار في نقل وتمير الأسلحة وجمع التبرعات، وإعداد الطعام والإيواء. فقد كانت تنشط أثناء الثورة في مدينة غدامس بحيث كان منزلها منذ 1956م مركزا ومأوى لأعضاء جيش التحرير الوطني، وبستانها كان مخبئا للسلاح والتموين لإمداد المجاهدين ومرت على تلك المنطقة معظم الأسلحة الموجهة إلى الداخل عبر الحدود الجزائرية الجنوبية الشرقية القادمة من الأراضي الليبية والمصرية، منذ سنة 1949م. أثناء فترة التحضير للثورة. ومن هذا التاريخ إلى غاية 1962م احتلت المجاهدة فاطمة حنيش مكانة من بين المجاهدات القلائل اللواتي تحملن وتجنبن من أجل القضية الجزائرية. كما لا ننسى مكانة المرأة الطوارقية من خلال زهرة التاسيلي-ناجر. هذه الزهرة كانت زوجة (لاشو) مجاهدة لأنها استطاعت أن تدافع عن بني جلدتها من الطوارق. بحيث جعلت من الضابط الفرنسي (لاشو) رجلا رحيمًا وحولته من رجل عسكري قاس إلى رجل إنساني يتعاطف مع قضية عادلة. وبفضل شخصية ومكانة هذه الزهرة الطوارقية التي لا تختلف في معاناتها مع الاستعمار عن الجميلات الثلاثة جميلة بوباشة، وجميلة بوعزة، وجميلة بوحيرد التي تزوجت المحامي القدير السيد فرجاس الذي كان يدافع عن القضايا العادلة. إذن زهرة تاسيلي امرأة عظيمة ذات مكانة مرموقة فاستطاعت بفضل شخصيتها ومكانتها أن تحول ذلك الرجل العسكري الجلف القاسي أكثر من قسوة طبيعة تاسيلي-ناجر. فكان يتستر على القوافل التجارية وحتى الذخيرة من السلاح كان يهديها للمجاهدين أحوال أبناءه الثمانية. كما كان يتستر عن الوشايات التي تصله بخصوص بعض العناصر التي تتعاطف مع الثورة. وهذا حتى لا يثر ويغضب زهرة. (زغيمي الطاهر، المولود 1925م ورقلة. مقابلة خاصة بتاريخ 07/ 01/ 1999م).

2 - مكانة المرأة في الخطوبة والزواج:

يكاد يكون من الثابت اليوم أن الطوارق لا يختلفون كثيرا، في عاداتهم وتقاليدهم عن أغلب سكان الصحراء الكبرى، بينما توجد بعض الفروق الطفيفة بين هؤلاء الطوارق وغيرهم من سكان الصحراء خاصة العرب المحافظون على عاداتهم وتقاليدهم العربية الأصيلة. غير أن الباحث محمد سعيد القشاط وصف عادات مجتمع الطوارق بالخصوصيات التالية قائلا: "ويعتبر مجتمع الطوارق من المجتمعات المتفتحة في الإسلام والخالي إلى حد بعيد من العقد والتعقيد. فالشباب والشابات يلتقون في الأفراح وغيرها دون أن تغطي المرأة الطوارقية وجهها بل على العكس، الرجل الطوارقي في مثل هذه اللقاءات هو الذي يغطي وجهه ويحرص على تضيق لثامه حتى لا يظهر منه غير العينين في اللقاءات التي تتواجد فيها المرأة - ويستمر القشاط في وصفه لهذه الظواهر يقول: وتقول الرواية التي تشبه الأسطورة إن سبب ذلك أن الطوارق هاجمهم العدو في أحد مخيماتهم ذات مرة وانهم الرجال ولكن النساء لبسن العمام وملابس الرجال وضيقن اللثام وامتنطين ظهور المهاري وطاردن العدو الذي هاله كثرتهم فترك لهن الأموال وفر هاربا - يقول القشاط - ومنذ ذلك التاريخ بدأ الرجال يتلثمون لتغطية وجوههم من عار الهزيمة والنساء يكشفن عن وجوههن اعتزازا بالنصر الذي حققه... ويمضي القشاط قائلا: غير أنني أرى أن اللثام عادة عربية قديمة كان الحميريون يتلثمون وقد استشهد الحجاج بن يوسف في مسجد الكوفة عندما جلس مثلثا ثم قام للخطبة ببيت لابن سحيم وهو شاعر عربي قديم: أنا ابن جلا وطالع الثنايا... متى أضع العمامة تعرفوني..." (القشاط، 1989، ص. 89)، لكن نظرة الإفرقيين عامة والطوارق خاصة إلى المرأة هي في مرحلة واحدة -مرحلتها كزوجة- أي في مرحلة النضج، إذ هي قبل هذا مجرد طفلة، وهم لا يعرفون العانسو لا الأرملة التي لم تسارع إلى الزواج. إلا أن حقوق المرأة هي أثناء زواجها (تبقى ساكنة) نظرا لأن الزوج هو الذي يصبح مسئولا على الأعمال في المجتمع القروي أي في المجموعة المكونة منه ومن زوجته، لكن هذا الحق يبقى عديم الحركة والفعالية إذ ما بقي الزوج يتولى رئاسة شؤون المجتمع الأسري، يبدأ نشاطه من جديد عندما ينتهي قيام السلطة الناشئة عن الرابطة الزوجية. المرأة الإفريقية مثلها مثل الشريك الصامت الذي لا تنتقص حقوقه إلا عندما تنفصم عرى رابطة الزوجية، وهذه الظاهرة هي نفسها عند المجتمعات الأكثر تحضرا إذ لم تكن للزوجة شخصية مالية منفصلة حتى تاريخ حديث، وإن كان التغيير قد أصاب هذه المجتمعات تجاه معاملة المرأة فقد تغير أيضا مركز المرأة في إفريقيا الزنجية فأصبحت تتاجر وتمتلك الأرض والماشية والأثاث، منفصلة عن زوجها (محمد السويدي، 1989، ص. 78).

يتجنب الطوارق مثل أغلب المجتمعات الإفريقية عقد زواج يعترض عليه الطرفين، لهذا يمكن القول أن الزواج الذي يقوم على الحب في المجتمعات الغربية لم يكن شيئا جديدا وذلك أن هذا النوع من الزواج العاطفي قد عرفته المجتمعات الإفريقية قبل عدة قرون، وبخاصة في المجتمعات التي يشارك فيها الفتيان والفتيات في مناسك الرعي والحصاد والرقص، وغيرها من المناسبات الاجتماعية الكبيرة.

أ - دور ومكانة المرأة الطوارقية في الخطوبة:

تبدأ الرغبة في الزواج عن طريق الوسيط، أو قد يبعث الشريك هدية لولي الزوجة، أو يبعث بشاة إلى الفتاة، فإذا قبلت الهدية كان من بين ذلك أن عرضه قد قبل من حيث المبدأ فيبعث من يفاوض الأب أو الولي لإتمام الزواج وقد يذهب هو وبعض أصدقائه، ثم تود الفتاة الزيارة في صحبة بعض صديقاتها لتتعرف على أفراد الأسرة التي ستعيش معهم لكن الشيء الملاحظ أن سيدتي الأسرتين يبقين بعيدا عن هذه المباحثات إلى أن تتم الإجراءات التمهيدية للزواج والتحضير له. حين تصل الفتاة سن البلوغ يقام لها احتفال التتدي الذي يتم فيه الغناء والعزف وتلبس فيه النساء الحلي وأفخر ما لديهن من ثياب وجلد وفضة وحلي وإلى الفتاة البالغة. وبلوغ الفتاة يعني أنها مؤهلة للدخول في تجربة حب مع من تختاره من الشبان، ذلك أن الزواج في المجتمع الطوارقي يبنى على العلاقات الغرامية التي قد تدوم أحيانا عدت سنوات بين الشاب والفتاة قبل أن تكلل بالقران. وهي علاقة لا تما نعهما القبيلة أو المجتمع بل تعتبرها عادية وقاعدة مثلها مثل الزواج. والمهر كما أشار إليه الباحث محمد سعيد القشاط قائلا: "والمهر لدى قبائل النبلاء سبع نياق، أما لدى الموالي والعبيد فيكون اثنين من الماعز، كما يختلف ذلك بين السلطنات فبعضها أكثر وبعضها أقل. وأصبح أخيرا المهر اسميا يدفع مؤخرا وقد لا يدفع وخاصة النياق السبع قد تدفع منها واحدة أو أكثر وتذكر في العقد على أساس أنها ستدفع...". (القشاط، 1989، ص. 91).

غالبا ما يكون أجر الزوجة (المهر) من الماشية أو عملا يؤديه الزوج في حقل والد الزوجة أو الرعي، أو الاثنان معا، كما هو الحال عند القبائل الصحراوية ومنها الطوارق في منطقة تاسيلي -ناجر، أحيانا يستمر العمل حتى بعد الزواج كما تقتضي العادة عند بعض الطوارق أن يتم الزواج على أساس الاختطاف. إذ تبدأ معركة وهمية يتم أثناءها اختطاف الرجل لزوجته المقبلة، ويقف للقتال وفي جانبه أصدقاؤه وزملاءه.

كانت هذه الظاهرة متبعة في القديم في بعض البلدان الإفريقية المجاورة وتبدو أحيانا أثناء إقامة الأعراس، حتى عند بعض القبائل في الجنوب التونسي والليبي. من جهة أخرى فإن كلمة أعزب أو عانس تعني في الكثير من القبائل الطوارقية أكثر من مجرد عدم الزواج، ذلك أن الأعزب أو العانس عبء على من يعيش عنده ولا يمكن التسامح مع هذا الوضع. لهذا يجب أن يسارع من ماتت زوجته وأن تسارع من تزلت إلى البحث عن شريك آخر لإقامة حياة زوجية كاملة إرضاء للضمير الجماعي وحفاظا على توازن المجتمع واستمراره، فما أعمقها فلسفة في الحياة. هناك خصوصيات عديدة ينفرد بها النظام الاجتماعي الطوارقي لأن تركيبة التنظيم الاجتماعي الطوارقي جد معقدة لا تفك طلاسما بين عشية وضحاها ولا يستطيع أي غريب عن المجتمع الطوارقي الغوص في أعماق تلك الخصوصية. لهذا، فكل ما قيل ويقال وما كتب لا يتعدى ذكر بعض الظواهر العامة كدوام فرح أو عرس الطوارق قرابة الشهر مع الضرب على الدف والطبل ونحر وذبح الإبل في تلك المناسبة، وقد يتجاوز عدد الإبل المذبوحة السبعة إذا كان صاحب

الفرح من العائلات الشريفة والمتيسرة ماديا، وهذا، نظرا لكثرة المعازيم من كل العشائر دون استثناء. أما البكارة عند الطوارق فليست بالأهمية الكبرى ولم يحدث أن طلق طوارقي زوجته ليلة الدخلة لأنه وجدها غير بكر عكس ما هو سائد عند سكان الجنوب الآخرين كالشعانية والسوافة وغيرهم فعدم وجود الفتاة بكرا يعتبر إهانة ما بعدها إهانة وفضيحة كبرى لأسرتها، وكثيرا ما يتم الطلاق في أول ليلة الزفاف. بينما عند الطوارق تحضر مجموعة من الشباب في الصباح الموالي لليلة الدخلة فيقدم لهم اللحم وغالبا ما يكون لحم جمل ليأكلوه ومن ضمن اللحم قطعة من سنام الجمل الذي نحر من قبل العريس. فإذا كانت العروس بكرا، لا يؤكل الشحم بل يعطر ويصبغ بالنيلة ويرجع بيه للنساء، أما إذا كانت العروس غير بكر فيؤكل الشحم. طبعا هذا إذا كانت العروس من طبقة إهقارن.

أما إذا كانت العروس والعريس من طبقة الأغمداء فيقدم للشباب لحم العنزة التي ذبحت لأنهم لا ينحرون جملا وضمن اللحم لحمة الكتف. فإذا كانت العروس بكرا لا تؤكل تلك اللحمة بل يضع عليها العطر وتصبغ بالنيلة وترجع إلى النساء أما إذا كانت العروس ثيبا فإن اللحمة تؤكل ويتقب عظم الكتف ويعلق في عمود الخيمة (الركيزة) الأمامي وبذلك إعلان على أن الفتاة ليست بكرا (القشاط، 1989، ص. 166).

ب - مكانة المرأة الطوارقية في الزواج:

من الخصوصيات الهامة في مراسيم الزواج لدى الطوارق في الماضي القريب، أن لا يدخل الزوج على زوجته إلا بعد إتمام المهر وتسلمه كاملا لأسرة العروس أما حين الزواج فإن على الزوج احترام زوجته تقديرها لذلك يعتبر ضربة لها عارا ومذمة يحتقر بسببها الرجل القبيلة كلها إلى درجة يضطر معها إلى مغادرة موطنه نحو وجهة أخرى، والمرأة لا تحتمل الإهانة مطلقا من زوجها وحين تشعر بأنها تكره زوجها أو لم تعد تجد معه السعادة اللازمة فإن لها حق الطلاق والأعراف تقضى بأن يتم الاحتفال بطلاق المرأة كما يتم الاحتفال بزواجها وأثناء الحفلة تتلقى الهدايا من الرجال المقربين إليها قصد الزواج غير أن العادة تستوجب ألا تحملها معها إلى البيت بل تجرد بها (تصدق) على المحتاجين، وكأن المرأة في مجتمع الطوارق غير ملزمة بإعداد الطعام للزوج بل يتقاسمان كل الأعباء بما فيها الطبخ والكنس ورعاية الماشية والعمل الزراعي، فالرجل يعجن ويطبخ ويعد الشاي والمرأة تهيب، الحليب. والنساء الطوارقيات ليسن أميات فهن جميعا يحسن الكتابة بالحروف التيفيناغ ويعلمنها لأطفالهن ويتبادلن بها الرسائل والخطابات فيما بينهن، ويحافظن بها على عاداتهن وثقافتهن تشكلن مدرسة تعلم الأجيال لغة وخط أجداده عبر التاريخ، ومن المعلوم أن مجتمع الطوارق يعتد بنسب الأم وليس بأصل الأب، فالرجل الذي لا يعرف أهل أمه لا يمكن أن يتولى تسير أمور القبيلة ولو كان أبوه من أشرف قومه. وهو مكلف جدا إذ يقدر بسبعة من النوق حسب إشارة محمد سعيد القشاط الذي أكد على بعض المظاهر الخاصة للطوارق في أعراسهم قائلا: "... وإلى جانب المهر فإن أم العروس تشترط (تاغتست) أو هديتها الخاصة وعادة ما

تكون ثورا أو جملا. مع بعض الحلي منها أربعة حدايد فضة أو ذهب. وثلاثة خواتم من الفضة أو الذهب وسلسلة واحدة.

وتكون طريقة تقديم (تاغتست) أن تجتمع النسوة في المخيم لتهنئة أم العروس بخطبة ابنتها ويتحلقن حول (تيندي) وهو جلد مربوط على هاون يشبه (الدريوكة) عند أهل شمال أفريقيا... (القشاط، 1989، ص.91).

وأن البنت التي تتزوج لأول مرة تبقى سنة في رعاية أمها حتى تنتقل أساسيات القيم العرفية منها في أسلوب تكوين البيت وتربية الأطفال، ومعاملة الزوج ويبقى الزوج بجوار أصهاره والمرأة مع أسرتها إلى أن تلد مولودها الأول، حينها يكون مخيرا بين البقاء مع أصهاره أو الرحيل إلى أهله (القشاط، 1989، ص.166). كما أن الزواج يقع عادة داخل العشيرة التي تنتمي إليها الأم، وتأتي صلة القرابة والطفل الذي يولد عند الطوارق يرث الجاه والثروة عن طريق الأم. أما حين الزواج فإن على الزوج احترام زوجته تقديرها لذلك يعتبر ضربه لها عارا ومذمة يحتقر بسببها الرجل القبيلة كلها إلى درجة يضطر معها إلى مغادرة موطنه نحو وجهة أخرى، والمرأة لا تحتمل الإهانة مطلقا من زوجها وحين تشعر بأنها تكره زوجها أو لم تعد تجد معه السعادة اللازمة فإن لها حق الطلاق والأعراف تقضي بأن يتم الاحتفال بطلاق المرأة كما يتم الاحتفال بزواجها وأثناء الحفلة تتلقى الهدايا من الرجال المقربين إليها قصد الزواج غير أن العادة تستوجب ألا تحملها معها إلى البيت بل تجرد بها (تصدق) على المحتاجين. وأطفال الطوارق يعيشون وتجري تربيتهم في حضن العشيرة التي اختار الأبوان الانتماء إليها بصفة دائمة والمرأة الطوارقية التي توفي زوجها وأصبحت أرملة ولها أطفال من الزوج المتوفى. والأطفال عندما يكونون غير متزوجين يعيشون تحت وصاية خالهم وهو أولى برعايتهم من أحد أعمامهم، ولما يتزوج أحدهم تعيش معه أمه وأخوته.

3- مكانة المرأة الطوارقية في تعدد الزوجات والطلاق:

لا يحق للرجل الطارقي في الزواج أكثر من امرأة واحدة واغلب الطوارق لا يجمعون امرأتين في عصمة الرجل وحتى إذا أراد أن يتزوج فيطلق الأولى. لكن الآن بعضهم يتزوج أكثر من واحدة ولكنه قليل جدا، والطلاق لا يقع إلا في حالات نادرة جدا. أما تعدد الزوجات فهو غير معروف لدى مجتمع الطوارق فإذا أصيبت المرأة بمرض مزمن أو عقم فإن الرجل يختار البقاء معها أو يطلقها غير أنه من غير اللائق في عرفهم أن يحتفظ بها ويتزوج بغيرها في أن واحد فالمرأة لا تقبل معاشرة رجل متزوج والزوجة لا تستمر في العيش مع زوجها إذا علمت بحبه لغيرها. كما يسمح العرف الطوارقي في قاعدته العامة للرجل أن يقتل زوجته في حالة ارتكابها جريمة الزنا، ويجيز له العرف أيضا بقتل من فعل معها ذلك. وإذا ما رغب الطوارقي عن زوجته فيلجأ إلى تطليقها حسب الشريعة الإسلامية بعد أن يدفع لها مهرها المؤجل أما إذا رغبت المرأة الطوارقية في الطلاق من زوجها ولم تعد تطيق البقاء معه فأنها تنتقل إلى منزل أهلها وترسل

له مع أحد الرجال الموثوق فيهم ونقول له: (أنا هاربة منك) -حسب تعبير محمد سعيد القشاط- فيقوم هذا بنحر جمل أو ثور ويكرمها وتجري مراسيم الطلاق وتنتظر العدة ثم تتزوج من آخر. أما إذا كان زوجها متوفى فتخرج بعد نهاية العدة وتأتي إلى خيمة أحد العلماء ونقول له: " أنا هاربة إليك وأريد أن تكتب لي حجابا ينجيني من شر الأنس والجن" فيفهم العالم ذلك ويبقيها في حمايته إلى أن تتزوج إن لم يكن لها أهل... " (القشاط، 1989، ص. 101).

وتحظى المرأة الطوارقية بمكانة خاصة، فمجتمعهم يعد -حسب الباحثين في علم الاجتماع- من المجتمعات الأمومة. وجميع الطوارق مسلمون متمسكون بالمذهب السني المالكي يترك الرجل للمرأة مساحة من الحرية بدون تحفظ في أمور مثل اختيار شريك الحياة ورعاية شؤون المنزل ومن الغريب افتخار المرأة بالطلاق وتسمى بعده «أحسيس» أي الحرة من أي التزام. والحكمة من ذلك أنها بتعدد زواجها وطلاقها تنجب الكثير من الرجال للقبيلة عادة ما تكون مثقفة أكثر من الرجل وتندرب على لغة التيفيناغ أو التماهق) وكتابتها، فتلك اللغة الفريدة تكتب من اليمين إلى اليسار ومن أعلى إلى أسفل فهي سيدة منزل من الطراز الأول فهي وعلى سفور محاسنها تعاضد الرجل المتنقل بين مصادر المياه للمحافظة على إبله فتقوم بتربية الأطفال وإصلاح الخيام المصنوعة من جلد الماعز والضأن المدبوغ أو المبنية من الطين الآجر وهي نادرة إلا قرب مناطق المسطحات المائية الدائمة كما في الواحات وتجمع الحطب للتدفئة، كما تعد مختلف مشتقات الحليب للغذاء بصورة عامة في شكل معجون ومكبوس مع التمر، تمارس المرأة الحرف الصغيرة بيد خبير فنان فهي تنسج القش على شكل مراوح وصال وتصنع السروج والعقال للجمال وتقتل الحبال للدلو والشادوف اللذين تسحب بهيما المياه من الآبار الصحراوية العميقة، يتم حلق رؤوس أطفال الطوارق بحيث لا يبقى إلا عرف في المقدمة ولكل قبيلة شكل حلقة معين فبعضهم يترك قرونا على جنب الرأس أو خطا من الشعر في وسط الرأس المقدمة إلى نهايتها يسمى «التيب»، فالحلقة رغم أنها عادة متوارثة يمكن تفسيرها كنوع من النظافة الشخصية للطفل حتى لا يمتلئ شعره برمال الصحراء ويصاب بالأمراض، وعادة ما ينضج الطفل بسرعة ليشب عوده ويقوى كراع صغير يعتمد عليه.

4- مكانة المرأة الطوارقية من خلال لباسها وزينتها:

يتكون لباس المرأة الطوارقية، من قميص وفستان قصير ولحافا يوضع على الرأس والكتفين أثناء البرد وهبوب الرياح. كما ترتدي المرأة خفا وحذاء أما عقود المرأة الطوارقية فمنها المرجان والأساور الخشبية، ومشغولات خفيفة مصنوعة من المعدن كالفضة. والنساء غالبا ما يفضلن تعليق مرآة صغيرة حول

أعناقهن. ويلبسن الخلاخيل والأسوار وخواتم الفضة وعقود الخرز والعقيق تعد من الزينة الأساسية للمرأة الطوارقية البسيطة، مثل القطارة وهو نوع مميز من حلي المرأة تزين به عنقها ويصنع في العادة من الفضة وشكله بأشكال هندسية على هيئة مثلثات. وفي الوقت الحاضر أصبحت القطارة تصنع من الذهب. وهناك (تان كطوف) وهي عبارة عن عقد تلبسه المرأة الطوارقية به مجموعة من الخيوط بها خرز أسود اللون رقيق وهي قلادة تفضل المرأة لبسها وتوضع على العادة حول العنق. في الحين تفضل المرأة الطوارقية لبس (إيسارن) هي عبارة عن سلاسل من الفضة مثبتة بخيطين وتعلق على صفائر الشعر من الجانبين. كما تفضل استعمال (بتسكركرت) لتسريح وفرق شعرها بهذه الأداة ليكون مرتباً وجميلاً. و(إيزبان) وهما حلقتان من الفضة أو الذهب يتم تثبيتهما على جانبي الرأس مع ضفيرة الشعر. وتستعمل (الزراقة) وهي عبارة عن قلادة مصنوعة من الفضة أو الذهب تشبك بخيط وتزين بها المرأة الطوارقية. وكذلك أساور (إيهجان) وهذه الأساور مصنوعة من الفضة الخالصة تلبسها المرأة الطوارقية في المناسبات والأعراس. كما تلبس (تيمشاض) وهي حلي من الفضة تشكل على شكل هرم وترتبط مع الشعر وتدلي على جانبي صفائر المرأة الطوارقية. يضاف إلى ذلك (المحلب) هو عبارة عن عقد مصنوع من خليط الأعشاب العطرية الطبيعية وتصنع المرأة منها عجينة بعد دقها وطحنها وخلطها بالماء، وتصنع على هيئة دوائر ثم تمرر من خلال خيط مع حبات من العقيق الملون ويكون بذلك عقداً جميلاً تضعه المرأة الطوارقية حول عنقها. كما أن هناك قلادة مصنوعة من الفضة الخالصة أو الذهب ترتديه المرأة في المناسبات والأفراح يعرف بـ(ألمس). كما تلبس المرأة الطوارقية (إسخاب) وهو عقد مصنوع من العقيق الرقيق جداً له رائحة متميزة ويشكل بتشكيلات جميلة وتركيبية مميزة وألوان باهرة ورائحة تلبسه سيدات الطوارق صغاراً وكباراً مثل (أسادر) وهي مجموعة من العقود تلبس في عنق المرأة مصنوعة من العقيق الرقيق وتشكل على هيئة زخارف فنية رائعة. يضاف إلى ذلك (أساور) وهي مصنوعة من الجلد القماش ومطرزة بالخرز وتعتبر تحفة فنية رائعة. وتلبس المرأة في الأذنين أقراط من الفضة الخالصة. كما تلبس مجموعة من الخواتم المصنوعة من الفضة تعرف بـ(تيسغين) وكل خاتم يلبس ويوضع في أصبع معين وله اسم خاص مثل (أسجلي) يلبس في أصبع الإبهام للمرأة. بينما (تسيق) يلبس في أصبع الوسطى. وأما في أصبع البنصر يلبس (تتركبت) وأخيراً يلبس (أتلي) في أصبع الخنصر. (الدالي، 2006، ص 317، 318).

فالفتاة يجدل شعرها لصفائر وتوشح بالخرز وحلقات على شكل النجمة أو الهلال تتدلى على الأذن وتلبس فستاناً فضفاضاً أسود اللون أو أزرق مزركشاً بألوان يغلب عليها الأزرق، وإذا ما تزوجت، وغالبا ما يكون من الأقارب في العشيرة، حق لها أن تلبس الخلاخيل وبقية الزينة المعروفة للمرأة بشكل عام إضافة إلى لبس الثوب الذي تتميز به المرأة. وعموماً فإن النساء الطوارقيات لا يحبذن استعمال الزينة الصناعية ويفضلن الزينة الطبيعية فيستعملن الكحل الذي يجلب في الغالب من الحج وهو عبارة عن

حجارة سوداء اللون يقوم المرأة بطحنها، ثم تستعمل كحلا للعين ورسمًا للحاجبين وقلما يفارق جعبتها في لوازمها الخاصة. يضاف إلى ذلك (تفتست) وهو نوع من حجر الموغرة أحمر اللون، يدق ويطن حتى يصبح دقيقا ناعما كالبودرة ويخلط بالحليب الطبيعي، ويوضع على الوجه والخدين للمحافظة على أناقة الوجه وحماية البشرة من الجفاف ويبقى جمال المرأة الطوارقية طبيعيا. وكذلك تستخدم حجر آخر أصفر اللون من الطبيعة يعرف بـ(مكره) واقى من أشعة الشمس والجفاف ويعطي بريقا جميلا للوجه، وهذا بعد طحنه ووضعه على الوجه والخدين. وأما (بابا) هي عبارة عن حجر أسود اللون تزين به المرأة الطوارقية في رسم الحاجبين والشفاة وتحافظ هذه المادة على نضارة الوجه وتحميه من أشعة الشمس الحارقة والرياح الجافة وبالتالي تستجيب المرأة لتحدي الطبيعة استجابة ظافرة عندما تستعمل هذه المواد الطبيعية مثل (اللوزة) وهي عشب طبيعى ذات جذر أحمر تستعملها النساء الطوارقيات لتجميل شفاههن وحمايتهن من التشقق والجفاف. وأما فيما أشهر العطور التي تميل إليها المرأة الطوارقية وتستعملها باستمرار هي عطور كان يجلبها التجار من مناطق بعيدة مثل الحج والسودان ومن أهم أسماء العطور المفضلة لديها هي (رفدور) و(بارزيت) و(بوماريا) و(بنت السودان) هذا فضلا عن أنواع البخور مثل عود قماري والجاوي وغيره.

وخلاصة القول أن مكانة المرأة الطوارقية ترجع إلى زمنا بعيد كانت لها سيطرة تفوق سيطرة الرجل ضمن العائلة فلها الحق في اختيار الزوج الذي يناسبها في مقابل ذلك ينتظر منها أن تلد لقبيلة الكثير من الأبناء. ورغم هذا كانت المرأة الطوارقية عامة في النظام القبلي الصحراوي، في منطقة التاسيلي -ناجر قديما وحديثا أفضل حالا من اللواتي أتت بعدها في ثقافات وحضارات أخرى. فقد كانت المرأة المتزوجة تملك حق التملك، وهذا الأمر متقدم جدا بالنسبة للحضارات الأولى. كما أن نساء الطبقات العليا في المجتمع الطوارقي المعروفة بـ(أهقارن) كن يعيشن حياة مترفة رغدة في زمن رواج وازدهار تجارة القوافل في عهد محمد اخنوخ. ولهن الكثير من الأصباغ والدهون والجواهر من الفضة والذهب والقماش والجلود الرفيعة في ذلك الوقت. يستغرب جيمس ريتشاردسون من حق المرأة الطوارقية في الميراث فيشير إلى ذلك قائلا: (فالمرأة وحدها هي التي يحق لها الإرث خلافا للرجل ذلك أن قانون حق الإرث للابن البكر).

المراجع:

1- إبراهيم العيد بشي، 2009، تاسيلي ناجر، الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، الجزء الرابع، منشورات الحبر، الجزائر.

2- CAMPS, G., 1974, Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du nord et du sahara, Vol. I, Paris.

3- محمد سليمان أيوب، 1969، جرمه، دار المصراطي للطباعة والنشر، طرابلس، ليبيا.

4- الهادي المبروك الدالي، 2006، قبائل الطوارق، دراسة وثائقية، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا.

5-نجمي رجب ضياف، 1999، مدينة غات وتجارة القوافل الصحراوية، دار الكتب الوطنية بنغازي، ليبيا.

6-محمد سعيد القشاط، 1989، التوارق، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، كاليري-إيطاليا.

7-محمد السويدي، 1985، محاضرات في الثقافة والمجتمع، طبعة الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر.

8-مديرية المجاهدين، ولاية إيليزي.